بين القديم والحديث

الدلالة النفسية

للألفاظ والتراكيب العربية

بقلم سيد قطب

المدرس بمدرسة حلوان الابتدائية

أخيراً جداً استطاعت المدرسة القديمة فى الأدب العربى أن تعترف بأن اللغة كائن حى يتبع الناطقين به وبيئتهم ، ويساير تقدم الأفكار والعلوم ، ويتأثر بالسياسة والاقتصاد والاجتماع ... إلى آخر صفات الكائن الحى الذى يتطور وينمو

ولكن هذا الاعتراف لم يعد الدائرة النظرية عند هذه المدرسة ؛ لأنه جاء مجاراة للأفكار الحديثة عن اللغات ، لا اقتناعاً عقلياً أو نفسياً بهذه الحقيقة . ولذلك لم يتعد أثره عند أبنائها ترديد هذا القول في كتبهم — أو مذكراتهم المدرسية بتعبير أدق — وفى مقالاتهم التى يكتبونها فى بعض الأحيان . وظل هذا القول بعيداً عن التطبيق العملى ، فى نقد الآثار الأدبية والنظر فى الأعمال الفنية الحديثة

ومن هنا كان النزاع بين المدرستين القديمة والحديثة ، وكانت هذه الصيحات التى نسمعها من المدرسة القديمة عند ظهور كل مؤلف حديث ؛ ولا سيما دواوين الشعر ؛ إذ كان هذا اللون من الأدب هو الذى يتضح فيه الخلاف ؛ لأن التعبير النثرى عادة يكون تصويراً لحقائق تكاد تكون متفقاً عليها ، أو لأنواع من الأحاسيس لا ترقى إلى مرتبة الوجدان الشعرى — فى الغالب — فلا يختلف التعبير اختلافاً يدعو إلى النزاع

على أن الخلاف فى حقيقته ليس خلافاً لغوياً أو أدبياً كما يحسب الكثيرون ، وإنما هو اختلاف عقليتين ، لا تكادان تتفاهمان على أساس ، فى النظرة إلى اللغة والتعبير ، بل فى النظر إلى الحياة نفسها ، فى جملتها وتفصيلها

فأما المدرسة القديمة ، أو العقلية القديمة ، فترى فى الألفاظ العربية وطرق الأداء العربية ، نوعاً من الأصنام المعبودة ، لها قداسة وحرمة ؛ وتراها غاية فى ذاتها ، لا وسيلة تصوير ؛ فيصعب حينئذ عليها أن ترى لهذه الألفاظ والتراكيب صوراً وأشكالاً غير ما عهدته فى الأدب القديم

وأما المدرسة الحديثة ، فالألفاظ والتراكيب عندها أدوات للتصوير ، تختلف باختلاف الصور المراد إبرازها ، وباختلاف طريقة كل مصور فى الأداء ؛ وترى أن طريقة الأداء هذه تختلف اختلافاً صغيراً أو كبيراً ، تبعاً للأمزجة الشخصية ، ولأمزجة الأمم الناطقة باللغة إذا تعددت هذه الأمم ، كما هو حال اللغة العربية . فلا بد تبعاً لذلك أن تختلف طرق استعمال هذه اللغة ، وأن تخضع لطريقة الأداء الخاصة لكل أمة من الأمم . وطريقة الأداء هذه اتجاه عقلى ونفسي ، قبل أن يبرز ألفاظاً وتراكيب . والتقيد بصحة الألفاظ وصحة التراكيب ليس معناه التقيد بدلالتها الوصفية أو المرفية ، إذا اختلفت البيئة وتفاوتت أساليب الحياة

وقد يكون هذا الكلام نظرياً مجملاً ، ولهذا أتولى شرحه وترجمته إلى أمثلة محدودة فيما يلى :

* * *

لسنا نعرف بالضبط عمر اللغة العربية ، والذى نعلمه علم اليقين عنها يبدأ بالعصر الاسلامى ، أما العصر الجاهلى فاننا نعرف أشياء مبعثرة عن نهايته ، ونجهل كل الجهل أوائله

ومع هذا فنحن نفرض أن عمر هذه اللغة قبل الاسلام يساوى عمرها بعده ، ونفرض أن ظروف التطور والتحول التى أحاطت بها فى شطر عمرها الأول ، تعادل الظروف التى أحاطت بها فى شطر عمرها الثانى — وهذا فرض متسامح فيه كثيراً — ثم نطالب بأن يكون تطورها الفعلى فى الشطر الثانى ، مساوياً لتطورها فى شطرها الأول فحسب . فماذا نرى ؟

نرى فى الشطر الأول ، أن ألفاظاً كانت قد وضعت لمحسوسات ملموسة ،

فارتقت إلى محسوسات غير ملموسة ، ثم إلى (مدركات كلية)

ونرى تراكيب استعملت أولاً لحالات مجسمة أو واقعة ، فارتقت منها إلى حالات معنوية مجردة

ونرى أساليب متباينة ، على حسب الموضوعات التى تعبر عنها والمعانى التى تصورها

وأمثلة القسم الأول كثيرة . أذكر منها :

(١) كلمة « شرف » فقد وضعت أولاً « للمكان المرتفع » ثم عبر بها عن « العلو » ثم صارت إلى المعنى النفسى الذى تدل عليه

(٢) كلمة « كتابة » فقد كانت أولاً « للقيد » ، ثم صارت إلى معنى « التقييد » ، ثم انتقلت إلى مدلولها الحالي

(٣) كلمة « سبب » فقد كانت أولاً « للحبل » ثم صارت إلى « الصلة » بين شيئين ، ثم توسع فى هذا المعنى الأخير ، إلى أن يكون وجود شىء داعياً لوجود شىء آخر

وأمثلة القسم الثانى كثيرة كذلك فى الأمثال العربية وسواها من الاستعمالات التقليدية الشبيهة بالأمثال . أذكر منها :

(١) « بلغ السيل الزبى » فقد كان مورد المثل بلوغ السيل الحقيق إلى المرتفعات الحقيقية ، ثم صار مضربه لكل أمر جاوز حده .

(٢) « الصيف ضيعت اللبن » فكان في مورده صيف ولبن حقيقيان ، ثم صار يضرب لكل من فوت فرصة وعاد يطلبها .

(٣) قولهم : « أثلج الله صدره » فهو مأخوذ من البرد الحقيقى المطلوب في بلاد حارة كبلاد العرب ، ترى النعيم فى نسمة باردة . ثم صار يقال لكل من تطلب راحته النفسية .

وأمثلة القسم الثالث كثيرة فى الأساليب المتنوعة حسب الأغراض المنوعة ، مما لا يحتاج إلى إثبات نصوص خاصة يطول بها هذا البحث دون حاجة

ثم نرى غير هذا كله ، ألفاظاً وضعت للحى ، عبر بها عن غيره ، كقول

القرآن الكريم : «والصبح إذا تنفس» وألفاظاً لغير العاقل عبر بها عنه كقولهم : « صلب العقيدة » و « عذب الحديث » وألفاظاً وضعت للمحس ، عبر بها عما لايحس ، كقولهم : « ناء عليه الدهر بكلكله »

وهكذا وهكذا ، فى كل الاستعارات والمجازات

* * *

هذا طرف يسير مما وصلت إليه اللغة من التطور والتحول ، والبعد عن أصولها الوضعية في الألفاظ والتراكيب المختلفة ، في شطر عمرها الأول

فإذا نحن تصورنا اطراد سيرها فى هذا السبيل الطبيعى مدى الشطر الثانى ، فى التطور والتحول والبعد عن الأصل ، فأى تعنت إذاً هذا الذى يحاوله من يضطرك للوقوف عند الدلالات الأولى للألفاظ والتراكيب والأساليب ؟

والذى يبيح لكلمة الشرف أن تتطور حتى تصل إلى معناها الذى وصلت إليه فى آخر العهد الجاهلى ، لم لايبيح لكلمة «الفنان» مثلا أن تتطور من معناها الأصلى إلى معناها الذى يخطِّئه اللغويون في هذه الأيام ؛ مع أن خطوات تطورها أقصر من خطوات كلمة « الشرف » مثلا ؛ فهذه وصلت إلى أن تكون اسم « معنى » وتلك لا تزال اسم « ذات » . والأول أسبق فى مدارج الرقي .

والذى يبيح لكلمة «يتنفس» أن تسند إلى الصبح ، منذ ذلك العهد البعيد ، لم لا يبيح لكلمة « يلثم » أن تسند للفجر ، أو النور ، فيقال :

ألمح الفجر وراء الغلس يلثم الكون ببشر وابتسام

أو يقال :

يلثم النور وجهها وهى نشوى تغمض الجفن لذة أو دلالا

وهذه وتلك لا تعدوان ما ورد فى الاستعمالات العربية القديمة ، ولكنهما لم ترد بأعيانهما ، ولهذا وحده لاتقبلهما المدرسة القديمة هما وأمثالهما من التعبيرات

* * *

وبعد فقد أخذت البحث حتى الآن مأخذاً متواضعاً ، لأصور مقدار العنت الذى يحاوله المدرسة القديمة ؛ ولكن المسألة فى الحقيقة أوسع من هذا ، ويجب

أخذها بصراحة تامة ، تخرج الألفاظ والتراكيب العربية عن حرمة القداسة التى يريدونها لها ، وتخضعها للبحث العلمي ، فى قوة وجلاء .

يجب ألا نجد فى نفوسنا حرجا من المصارحة بأن هذه اللغة ليست لغتنا الأصلية ، وإنما هى لغة شعب آخر ، يختلف عنا فى كثير من التقاليد والعادات والأفكار والبيئة ، والعوامل الاقتصادية والسياسية . . . إلى آخر ما يختلف فيه شعبان .

وأن كل ما يربطنا بهذا الشعب ، إنما هو الصلات الدينية ، والتراث الأدبى ؛ وهاتان الناحيتان لا تستغرقان النفس الإنسانية المتشعبة المناحى .

وإنه تبعاً لذلك ، لا بد أن تظل هناك فجوات كبيرة ، بين مزاجنا ومزاجه ، وأفكارنا وأفكاره ، وعواطفنا وعواطفه ، وآمالنا وآماله . . . وحينئذ لا بد أن تختلف طرق أدائنا وتعبيرنا تبعاً لهذا الاختلاف ؛ ولابد أن نجد بيننا صور فكرية ونفسية لم يستشعرها واضعو اللغة الأولون ؛ فنختار لها نحن أداء من نوع خاص ، لم يوجد فى طرق الأداء المعروفة لهذه اللغة ، وإلا بقى جانب كبير من أحاسيسنا مكبوتاً بدون تعبير ، ويمكن هنا الاستشهاد بتطور الفنون الجميلة — وهى أداة تعبير وتصوير[1] .

وأحب أن يرسخ فى الأذهان أن ما نعبر عنه بالأسلوب ، لا بد أن يختلف فى شعب عنه فى آخر ولو توحدت اللغة التى ينطقان بها ، وأن هذا الاختلاف ضرورة عقلية لا فكاك منها ، وليست داخلة فى نطاق الإرادة ليقبل الإنسان منها ما يريد ويرفض ما يريد ، ما دام صادقا فى إحساسه ، صادقا فى التعبير عنه .

وأحب أن يرسخ فى الأذهان كذلك أن المدرسة الحديثة ، حين يرد فى أدبها بعض الأساليب الخاصة ، لا تتعمد بذلك أن تخرج على العربية المتعارفة ، ولكنها لا تجد فيها ما يصلح للتعبير عن نوع خاص من الخلجات لم يسبق أن أحسه الشعب العربى ، حتى يوجد التعبير عنه فى لغة ، أو أحسه فى ضعف وفتور ؛ فتلجأ

(١) تتسع هذه الاشارة لبحث كامل ، تستعرض فيه المدارس الفنية المختلفة وطرقها وأسباب تطورها وتداخلها

حينئذ إلى خلق استعمالات وصور جديدة من الأداء ، تناسب هـذه الحاجات الجديدة فى حدود اللغة العربية الصحيحة ؛ وسيأتى تفصيل ذلك بالأمثلة .

* * *

ثم نعود إلى ما كنا فيه ، لنقول : إنه فوق ما تقدم من الاختلاف الطبيعى الذى لا حيلة فيه ، بين الشعب العربى والشعب المصري ، فإن مفردات هذه اللغة وتراكيبها الغالبة ، قد وضعت فى عصر البداوة للشعب العربى نفسه ؛ ولم تساير اللغة حضارة هذا الشعب فيما بعد بنسبة تقدم هذه الحضارة ، وذلك لوجود روح من التحفظ الدينى ، أوجد ما يشبه الجمود فى الوضع والاشتقاق بعد عهد الجاهلية وصدر الإسلام ، فبقيت صور الألفاظ العربية محدودة — على سعتها — بحدود النفس البدائية الأولى للعرب ، فى الوقت الذى جدت فيه ألوان من الحالات النفسية المركبة والراقية دون أن يوجد لها ما يقابلها من الألفاظ والتعبيرات .

ولقد اضطر فنانون عظماء من العرب فى العهد العباسى : كأبى نواس وابن الرومى ثم المتنبى ، إلى ابتداع كثير من صور التعبير ، وإلى إدماج كثير من المشتقات الجديدة فى شعرهم ، مسايرة للحاجة النفسية ، وهي التى تنشىء الألفاظ ، وتبدع طرق الأداء . وحصل أكثر من هذا فى الأندلس ، فى أوزان الشعر وطرق الأداء

وكذلك اضطر جماعة من العرب المحدثين فى عصرنا هذا ، ممن عاشوا فى أمريكا ، أن يبتدعوا صوراً جمة من صور التعبير ، وأن يختطوا طرقاً جديدة من طرق الأداء ، لا عهد للغة العربية بها فى عصر من العصور

على أن اللغة العربية ، لو سايرت فى الوضع والاشتقاق وطرق الأداء نهضة الشعب العربى فى عصوره الذهبية ، ما استطاعت — مع هذا — أن تفى بحاجتنا نحن اليوم ، مالم تخضع للتعديل والتحويل والابتداع . وذلك لسببين :

(الأول) ماقدمته من بيان الاختلاف بين طبيعة الشعبين ، اختلافاً ينقص أو يزيد ، ولكنه موجود على كل حال .

(الثانى) أن خطوات النهضة العربية فى عصورها الذهبية ، تتخاذل أمام النهضة الحالية ؛ وقد تضاعف التراث العقلى والفنى مرات ، بما أضيف إليه بعد

تلك النهضة ، وكل هذا له أثره فى الحاجة إلى الألفاظ الجديدة وطرق الأداء الجديدة

وقد أسلفت أن سلالة هؤلاء العرب ، الذى سكنوا المُهاجر ، لم يجدوا فى هذه اللغة الغناء كله ، فأضافوا وابتدعوا وتصرفوا .

* * *

والدليل على أن هناك اختلافاً لابد منه تبعاً لاختلاف الحياتين ، نجده فى صلب اللغة ؛ فلو أنها كانت لغتنا الأصلية ما أمكن أن توجد فيها ألفاظ وتعبيرات بالذات ، منتزعة من صميم البيئة العربية الخالصة ، من هذا :

« أثلج الله صدره » وقد سبق الحديث عنها — و « سقيا لفلان » فباعثها الجدب الذى كان يهدد البلاد العربية فيجعل السقيا أمنية تتمنى ، ولا حاجة بنا نحن لهذه الأمنية والنيل يروينا ويغرقنا ! — و « ذهبت ريحهم » ، أو « هبت ريحهم » وهو مأخوذ من أثر الريح فى خيام العرب ورحلتهم فى الصحراء ، و« أخذ زمام الأمر فى يده » و « حدابى إلى كذا » وهو مأخوذ من قيادة الإبل ، و « لم يبق فى قوس الصبر منزع » و « أعطى القوس باريها » وهو مأخوذ من أدوات القتال الخاصة بشعب بدوى

فهذه التعبيرات وأمثالها ، وهذه المفردات الداخلة فى صلبها ، ما كانت لتوجد فى اللغة لولا نشأتها فى بيئة خاصة

ومن الإنصاف ألا تطلب لهذه اللغة أن تحتوى ألفاظاً وتعبيرات لم توجد فى هذه البيئة بالفعل ، وما هى بمستطيعة أن تحويها جميعاً فقد تزيد فى ناحية وتقصر فى ناحية إذا أخذها شعب آخر ، له بيئة أخرى ، وجعلها لغة له ، ولابد لهذا الشعب الجديد من التصرف فى هذه اللغة الأجنبية عنه ، حتى توافق مقتضيات حياته ؛ وحسبه أن يحافظ على صحة ألفاظها ، وصحة إعرابها ، وعلى ما يستطيع المحافظة عليه كذلك من طرق أدائها ، ودلالة ألفاظها وتعبيراتها ؛ ثم يتصرف فيما عدا ذلك بالوضع والاشتقاق ، وتحويل الدلالات ، وطرق الأداء . وهذا ما أخذت تحققه المدرسة الحديثة اليوم ، فأثار المدرسة القديمة وأقلقها !

* * *

وأنا على يقين لا شبهة فيه ، أن هذه اللغة إنما حافظت على أوضاعها الأولى فى مصر ، لأنها كانت لغة شعب فاتح قوى ، فى عهد اضمحلال وخمول للشعب المحكوم ، حتى ضاقت خلجات نفسه ، وضمرت نوازعه ومطامعه ، فلم يجد به حاجة ملحة إلى التحوير فيها والتعديل ، ثم إلى الخلق فيها والابتكار

ودليلى على ما أقول : أن هذه النهضة المصرية الحديثة ، وعمرها لا يتجاوز نصف قرن ، قد استشعرت هذه الحاجة الملحة فى أولى خطواتها ، وسيزداد إلحاح هذا الشعور كلما اتسعت آفاقها النفسية والفكرية ، وقويت مميزاتها الذاتية

وأن العهود السابقة فى مصر ، على ضعف بيئة الشعب المصرى فيها ، وضيق آفاقه النفسية والعقلية ، وضمور إحساسه بشخصيته ، لم تستطع الصبر التام عن التحوير والتعديل .

وهؤلاء شعراء مصريون مواهبهم ضئيلة ، وآفاقهم ضيقة ، مثل البهاء زهير ، وابن نباته ، قد حصروا هذه اللغة فى شعرهم ، واختاروا طرقاً للأداء فيها لم تألفها فى بلادها الأصلية ، وإن كان ذلك كله فى نطاق ضيق محدود ، مطبوع بطابع التهافت والضعف

ولا يعدم قارئ شعراء هذه الفترة أن يجد من هذا كثيراً ، وهو كما ترى مصرى معرب

ولا خطر فى الحقيقة من هذا التلقيح ، لأن بنية اللغة تحتمله ، وصدرها ينفسح له ، وقد استطاعت أن تهضم كثيراً من اللغات الفارسية والعبرانية والسريانية ، بل الهندية والرومية ، طائعة فى ذلك أو كارهة ، لأن الركود مستحيل فى اللغة ، إذا كان الذى ينطق بها فى حالة تجدد ونشاط

* * *

وهناك حقيقة أخرى خاضعة للبحث النفسى العلمى ؛ فقد أسلفت أن هذه اللغة وضعت غالبية ألفاظها ، وحددت طرق استعمالها ، وصور أدائها ، إبان طفولة النفس العربية وبداوتها

فالآن أقول : إن النفس البدائية البسيطة ، الضيقة المجال ، المحدودة التجارب

التى لم تختزن فى عقلها الباطن ثروة من الأحاسيس والانفعالات ، تميل إلى التحديد والبيان الحاسم فى الخوالج النفسية ، والأحكام العقلية ، والتعبيرات اللغوية ؛ وذلك لقربها من « الإدراك الحسى » للجزئيات ، وبعدها عن الشعور الشامل بالكليات.

وفى عالم الحس ، تتميز الأشكال ، وتتباين الأضداد ؛ فالمستدير غير المثلث والمستطيل ، والأسود ينافى الأبيض والأحمر ، وهكذا ...

وفى النفس المبتدئة لا يجتمع الإحساس وضده فى وقت واحد ، فالفرح لا يوجد مع الحزن ، والألم لا يجتمع مع اللذة ، والتواضع لا يلتقى مع الكبرياء ، والخير لا تحتويه النفس مع الشر ... وهكذا

هذا وذاك فى عالم الحس ، وفى عالم النفس البدائية . أما فى عالم المعانى ، وفى العالم العقلى الراقى ، وفى النفس المركبة المنفسحة الجوانب ، فتلتقى الأضداد الظاهرية ، وتجتمع المتناقضات الخارجية ؛ لأنه لا تضاد ولا تناقض فى هذا العالم الفسيح

وليس هذا كلاماً طائراً خياليًّا ، فالأمثلة الواقعة فى الحياة تبرهن على ذلك وتشرحه ، وإليك المثال :

(١) الرجل الذى يعوج سلوك زوجه ، أو إحدى قريباته ، فيبلغ به الحنق أن يقتلها دفاعاً عن عرضه . ماذا يكون شعوره بعد هذا ؟ ألا تلتقى فى نفسه لذة الانتقام والحفاظ على العرض بألم الجريمة ولوعة الفقدان ؟ فماذا علينا حين نعبر عن هذه الحالة بأنها « لذة أليمة » أو « ألم لذيذ » ؟

(٢) الشاب الذى يحب فتاة ، ويتغلغل هذا الحب فى نفسه ، ثم تصادفه فى ذلك آلام شديدة ، حتى ليكره هذا الشعور الذى يجشمه ما لا يطاق . ألا يجتمع فى نفسه الحب مع الكراهة لهذا الحب ؟ فماذا علينا حين نسمى هذا : « الحب المكروه » ؟

(٣) الفتاة التى يهجرها خطيبها إلى فتاة أخرى ، وهى تضمر له الحب ولكنها تثار ، ثم تلج بها الغيرة حتى لتود موته ولا يكون لسواها ؛ وإذا بها تسمع أن خطيبها الهاجر قد غرق فى النيل ، وقد كان فى نزهة نيلية مع غريمتها . ألا يجتمع

فى نفسها فرحة الشماتة وحزن الفجيعة ؟ فماذا علينا لو سمينا هذه الحالة النفسية « الفرح الحزين » ؟

فى هذه الأمثلة (وقد تعمدت البساطة فى اختيارها ، فتعقد الحالات النفسية وراء هذا بكثير) فى هذه الأمثلة تناقض لفظى نعم ! ولكن ليس هناك تناقض في الواقع ، بل هناك صدق فى التعبير يحتم هذا اللون منه ، كما أسلفت فى الحديث

وهذه الأمثلة ونظائرها ، هى التى تثور عليها المدرسة القديمة ، وتجعلها مادة تتندرها فى اجتماعاتها الخاصة ، أو نقداتها الساخرة

* * *

وإذا كنا نرى ونسلم برقى الحواس منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، ونعلم أن العين التى كانت لا ترى إلا النور والظلمة ، ترقت إلى تميز الأشباح ، ثم إلى تميز أجزاء الجسم الواحد ؟ ثم انتهت إلى أن تدرك الأجزاء والكل فى لمحة واحدة

ونعلم أن الأذن التى كانت تدرك النغمة المفردة ، ولا تستطيع التميز بين النغمات المختلفة أو المتقاربة ، قد ارتقت إلى أن صارت تطرب لنغمات « الاركستر » وهى تتباين علوًّا وانخفاضاً ، وتختلف نوعاً ولوناً ، ثم تأتلف منها فى الأذن نغمة واحدة شجية

إذا كنا نرى ونسلم باستطاعة الحاسة أن تجمع مرئيات ، أو أصواتاً مختلفة في آن ، فكيف لا نسلم باستطاعة النفس المركبة المعقدة ، أن تجمع الأحاسيس المتنوعة المتناقضة ظاهرياً فى آن ؟

ومتى سلمنا باجتماع هذه الأحاسيس ، فلم لا نسلم بالتعبير عنها فى صورة ترسمها رسماً صادقاً فى تناقضها واجتماعها ولو لم يرد مثلها فى التعبيرات العربية ؟

نعم ! كيف لا نسلم بهذا ، إلا إذا كان إخلاصنا للأشكال اللغوية ، أقوى من إخلاصنا للصدق ؛ وتعلقنا بالنصوص والأوراق ، أشد من تعلقنا بالحياة والاحساس؟

* * *

ولقد كان هناك نوع من العذر للقدامى لو أنكروا مثل هذا ، لأن الحالات

النفسية التى تقتضيها لم تكن موجودة ، أو وجدت ولكن لم يكن هناك ما يفسرها لهم ، لتأخر الدراسات النفسية لديهم .

ولكنا نحن اليوم قد وقفنا على كثير من البحوث « السيكلوجية » التى تكشف خبيئة النفس الانسانية — إلى حد ما — وجدت لدينا نظريات علمية ، كفيلة بتفسير هذه الحالات الوجدانية المعقدة

فنظريات « فرويد » عن « العقل الباطن » ومحاولات التحليل النفسى « لأدلر ويونج » وسواها ونظرية « السلوكيين » معتمدة على تجارب « بافلوف » وغيره كل هذه الثروة يجب أن تعيننا على فهم النفسية الانسانية ومخبآتها ، فتفسر لنا تعبيراتها وأداءها

وفي اعتقادى أن الباحث اللغوى ، كالناقد الأدبى ، لا بد له من هذه البحوث حتى يستطيع تفسير التطورات اللغوية ، والاتجاهات الأدبية ، ويفسح صدره لها ولا يقسو فى الحكم عليها ، لأنه يفهم الدافع إليها

وربما يلوح هذا القول غريباً ، ولكن غرابته تزول ، متى سلمنا أن « التعبير » لا يكون إلا إذا سبقه « الانفعال » ، وأن الانفعالات يجب الاهتداء فى تفسيرها بالبحوث النفسية

فنظريات العقل الباطن ، والتحليل النفسى ، تقول لنا : إن هناك فى كل نفس انفعالات مكبوتة تحاول الظهور ، وإن كبتها ومحاولة ظهورها يسببان كثيراً من الحالات النفسية الكامنة ومن التصرفات الظاهرة ، لا تفهم إلا بهذا المفتاح ، وإنه قد يجتمع نتيجة لذلك ، فى وقت واحد ، فى النفس الواحدة ، عدة انفعالات متباينة تبدو لا علاقة للواحد منها بالآخر

فاذا وجدت تعبيرات عن مثل هذه الحالات ، فلا بد أن تجمع بين ما يلوح متناقضاً ، وهو موجود فى صميم النفس الانسانية

ونظريات السلوكيين تقول لنا : إن تصرفاتنا فى الحياة إنما هى انعكاسات شرطية وتستشهد بتجربة « بافلوف » مع الكلب الذى كان لعابه يسيل إذا دق جرس

خاص ، لأن هذا الجرس اقترنت دقاته قبل ذلك بمجيء الطعام ، وبتجاربه الأخرى وتجارب سواه

فاذا وجدت فى النفس الانسانية حالة شبيهة بهذه ، فلن نفهمها ، حتى نعرف الشرط الذى اقترن بالانفعال الأول ، وكذلك لن نفهم التعبير الذى قد تبعثه هذه الحالة إلا بهذه الدراسة النفسية

* * *

وسأعرض حالات مثالية ، لتوضيح ما تقدم :

هناك تعبيرات عن أحاسيس منشؤها « تتابع المعانى » وهي حالة نفسية معترف بها فى أبسط الدراسات النفسية ، ومن أسبابها الاقتران الزمانى أو المكانى ، مثل تعبير « المعانى الحمراء » . فكيف تكون المعانى حمراء ؟

التفسير أن هذه المعانى كان قد سبق وجودها فى النفس ، مقترنة بضوء أحمر ، أو لون أحمر على العموم ، فإذا تكرر خطورها فى الذهن ، خطر معها اللون الأحمر ، وإذا كان هذا الذهن مجسّما (والتجسيم موجود في كثير من الطبائع) تخيل لهذه المعانى شخصية مقترنة بالضوء الأحمر ، فإذا هى حمراء !

وطبيعى أن الشاعر لم يفكر هذا التفكير ، ولكن هذه الخطوات تمت فى عقله الباطن ، وهو الذى يمد الفنان بالإحساس والتعبير

وبعض الناس يتخيل للأصوات ألواناً ، وعلته هذا هو الاقتران فى الذهن كما سبق التمثيل

كما أنه يجد تفسيراً علمياً آخر :

فالمعروف أن الذبذبات الصوتية ، والذبذبات الضوئية ، التى ينشأ عن تموجها سماعنا للصوت ، ورؤيتنا للضوء . هذه الذبذبات فيها أوجه شبه كثيرة فى شحناتها الكهرطيسية (الكهربة المغنطيسية) . ولها درجات متفاوتة ، وطبقات ذاهبة صعوداً وهبوطاً

وطبيعى أن كل درجة صوتية تحدث فى النفس انفعالاً غير الطبقة الأخرى ،

التى ترتفع أو تنخفض عنها . وكذلك درجات الضوء تحدث انفعالات نفسية على حسب ارتفاعها وانخفاضها

فإذا تشابه الانفعال النفسى الذى تحدثه طبقة اللون البنفسجى مثلاً فى نفس ما مع الانفعال الذى تحدثه طبقة خاصة من الصوت فى هذه النفس ، أخذ هذا الصوت ذلك اللون الذى شابهه فى إحداث الانفعال ، فأصبح « الصوت البنفسجى » !

ومسألة تشابه الانفعال الضوئى بالانفعال الصوتى محتملة ، لتشابه كثير من صفات الضوء والصوت كما أسلفت

وكذلك يمكن تفسير هذا وأمثاله « بتداخل الأحاسيس » وهو عيب ، أو خاصة ، ولكنه مزية فى الفنان ، تساعده فى الإحساس والتخيل

وينشأ عن تداخل الأحاسيس ، أن يحس الإنسان المسموع منظورا ؛ والمنظور مسموعا ، والملموس منظوراً أو مسموعاً ، أو هما معاً ، كما فى حالة المصابين بالعمى أو الصمم ، الذين يتخيلون صوراً وأصواتاً لا يلمسونه دون أن يروه أو يسمعوه

فلا غرابة إذن فى « الصوت البنفسجي » أو « الجسم الضاحك » أو « تسمع العين ضحكتها » أو « لفتات منغمة » ... الخ

* * *

وهناك تعبيرات عن حالات نفسية ، منشؤها التخيل ثم « المشاركة الوجدانية » وهى حالة نفسية معترف بها كذلك

ومثال هذا أن يخلع الإنسان على الجماد حياة فيخاطبه ويأنس به ، وعلى الحيوان إدراكا ، فيتفاهم وإياه . ومعظم الاستعارات قائم على هذا الأساس

فإذا رأينا شاعراً يذكر « المصباح الساهد » أو « العيون الظامئة » أو « أحلام النخيل » أو « فكرة جسم » أو « اليد المفكرة »

فهذه الحالة النفسية التى ذكرتها كفيلة بتفسير الدافع لاختيار هذه التعبيرات وبيان صدقها فى التصوير

* * *

وهناك تعبيرات منشؤها « طبيعة التجسم » وهى حالة نفسية متعارفة . ومثال

ذلك أن نتخيل المعانى المجردة ، ذواتاً محسوسة ، تحس وترى ، والمصورون الفنانون يمتازون بهذه الطبيعة ، فيتخيلون العدالة — كما رسموها — امرأة تمسك بيدها ميزاناً وهى معصوبة العينين . والمعرفة امرأة تمسك بيدها مشعلاً ، ونهر النيل رجلاً ضخم الجسم قوى العضلات ترقد على أفخاذه وصدره أطفال ترمز إلى روافده ... وهكذا

فإذا رأينا شاعراً يذكر : « الرجاء الدامى » أو « الأمل البسام » أو « الألحان الجريحة » أو « الآمال الهاتفة الراقصة » أو « الصمت الذاهل الشريد » الخ فهذه الطبيعة تفسر هذه التعبيرات ، وتشرح مافيها من الصدق والجمال .

* * *

وبعد — مرة أخرى — فقد تقيدت فى بحثى بعنوان المقال ، فتحدثت فقط عن « الألفاظ والتعبيرات » . ولكن هذه ليست كل شىء بين المدرستين القديمة والحديثة ؛ وإن وراءها لمجالاً أوسع للخلاف ، وأحق بالعناية والالتفات ؛ ذلك مجال اختلاف الإحساس بالحياة بين هاتين المدرستين ، واختلاف فكرتهما عن الحياة ، كما قدمت

فالمدرسة القديمة ضيقة الإحساس ، بدائية الشعور ، قليلة الذخيرة النفسية والتجارب الوجدانية ، بمقدار انفساح الاحساس فى المدرسة الحديثة ، ووفرة الذخيرة النفسية لديها ، والتجارب الوجدانية

ولهذا تضيق الأولى بالأخيرة ، لأنها تطالعها بألوان من الإحساس لاعهد لها بها ، بعد ما ألفت ألا تتسع إلا للون واحد من ألوان العواطف والخواجل ، تعرف له صورة واحدة ذات معالم وحدود ، فتحسب أن كل ما فى هذه الأحاسيس الجديدة ، إنما هو اختلاف فى التعبير ، والواقع أنه اختلاف فى الحالات النفسية ، التى استدعت هذا التعبير .

والآن وقد طال الحديث ، وتشعب البحث ، لا أجدنى مستطيعاً أن آتى بالأمثلة التى تصور هذه الحالة ؛ فلأدع ذلك إلى فرصة أخرى وحسبى اليوم ما قررته بشأن « الألفاظ والتعبيرات »

سيد قطب